تاج العروس

الحاوي لتهذيب النفوس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ترجمة مختصرة لابن عطاء الله

هو الشيخ الإمام العلامة الرّباني: أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى، الجذامى، الشاذلى (تاج الدين- أبو العباس، وأبو الفضل).

صوفى مشارك فى أنواع من العلوم كالتفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والأصول.

من كتبه النافعة:

١- الحكم العطائية.
٢- التنوير فى إسقاط التدبير.
٣- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.
٤- لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى، وأبى الحسن الشاذلى.
٥- أصول مقدمات الوصول.
٦- شرح قصيدة أبى مدين.
٧- المرقى إلى القدير الأبقى.
٨- تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس. كتابنا هذا.

توفى رحمه الله سنة ٧٠٩ هـ.

انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ١٧٦، ١٧٧). وجامع الكرامات للكوهن (ص٩٧، ٩٩). ومعجم المؤلفين لكحّالة (١/ ٢٧٥).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢].

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

التوبة إلى الله

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا كتاب (**تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس**). تأليف الشيخ الإمام الجامع بين علمى الشريعة والحقيقة تاج الدين أبى العباس أحمد بن عطاء الله السكندرى رحمه الله تعالى وأسكنه بحبوحة جنته، وأفاض علينا وعلى المسلمين من بركته، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وصحابته آمين: أيها العبد اطلب التوبة من الله فى كل وقت فإن الله تعالى قد ندبك إليها فقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وقال رسول الله ﷺ (إنى ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة)[1]. فإن أردت التوبة فينبغى لك أن لا تخلو من التفكر طوال عمرك، فتفكر فيما صنعت فى نهارك فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك واستغفر الله وتب إليه فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك ولا توبخها وأنت ضاحك فرح بل وبخها وأنت مجدّ صادق مظهر للعبوسة حزين القلب منكسر ذليل، فإن فعلت ذلك أبدلك الله بالحزن فرحا وبالذل عزا وبالظلمة نورا وبالحجاب كشفا. وعن الشيخ مكين الدين الأسمر رحمه الله تعالى وكان من السبعة الأبدال قال كنت فى ابتداء أمرى أخيط وأتقوت من ذلك وكنت أعد كلامى بالنهار فإذا جاء المساء حاسبت نفسى فأجد كلامى قليلاً فما وجدت فيه من خير حمدت الله وشكرته عليه وما وجدت فيه من غير ذلك تبت إلى الله واستغفرته إلى أن صار بدلاً رضى الله عنه. واعلم أنه إذا كان لك وكيل يحاسب نفسه ويحققها فأنت لا تحاسبه لمحاسبته نفسه، وإن كان وكيلاً غير محاقق لنفسه فأنت تحاسبه وتحققه وتبالغ فى محاسبته، فعلى هذا ينبغى لك أن يكون عملك كله لله تعالى ولا ترى أنك تفعل فعلا والله تعالى لا يحاسبك ولا يحاققك، وإذا وقع من العبد ذنب وقع معه ظلمة، فمثال المعصية كالنار والظلمة دخانها كمن أوقد فى بيت سبعين سنة ألا تراه يسود؟ كذلك

---

(١) رواه الترمذى (٥/ ٣٨٣)، وأبو داود (٢/ ٨٤)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ١١٤)، وابن ماجة (٢/ ١٢٥٤).

القلب يسودّ بالمعصية فلا يظهر إلا بالتوبة إلى الله فصار الذل والظلمة والحجاب مقارنة للمعصية فإذا تبت إلى الله زالت آثار الذنوب ولا يدخل عليك الإهمال إلا بإهمالك عن متابعة النبى ﷺ ولا تحصل لك الرفعة عند الله تعالى إلا بمتابعة النبى ﷺ والمتابعة له ﷺ على قسمين جلية وخفية، فالجلية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وغير ذلك، والخفية أن تعتقد الجمع فى صلاتك والتدبر فى قراءتك فإذا فعلت الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جمعاً ولا تدبراً فاعلم أن بك مرضاً باطناً من كبر أو عجب أو غير ذلك قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فيكون مثلك كالمحموم الذى يجد فى فمه السكر مراً فالمعصية مع الذل والافتقار خير من طاعة مع العز والاستكبار قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم السلام (فمن تبعنى فإنه منى) فمفهوم هذا أن من لم يتبعه ليس منه وقال تعالى حكاية عن نوح عليه وعلى نبينا المصطفى أزكى الصلاة والسلام (إن ابنى من أهلى) فأجابه سبحانه بقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود: ٤٦]، فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبياً كسلمان الفارسى رضى الله عنه لقوله ﷺ (سلمان منا أهل البيت) (١) ومعلوم أن سلمان من أهل فارس ولكن بالمتابعة قال عنه ﷺ تعليماً فكما أن المتابعة تثبت الاتصال كذلك عدمها يثبت الانفصال، وقد جمع الله الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه متابعة النبى ﷺ فتابعه بالقناعة بما رزقك الله تعالى والزهد والتقلل من الدنيا وترك ما لا يعنى من قول وفعل، فمن فتح له باب المتابعة فذلك دليل على محبة الله له قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١]، إذا طلبت الخير كله فقل اللهم إنى أسألك المتابعة لرسولك ﷺ فى الأقوال والأفعال، ومن أراد ذلك فعليه بعدم الظلم لعباد الله فى أعراضهم وأنسابهم فلو سلموا من ظلم بعضهم بعضاً لانطلقوا إلى الله ولكنهم معوقون كالمدبان بسبب من يطلبه.

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٩١)، وأبو الشيخ فى طبقات المحدثين بأصبهان (١/ ٢٠٣، ٢٠٥)، والطبرانى فى الكبير (٦/ ٢١٢).

واعلم أنك لو كنت مخصصاً عند الملك مقرباً منه وجاء من يطلبك بدين ضيق عليك ولو كان قدراً يسيراً فكيف بك إذا جئت يوم القيامة ومائة ألف إنسان أو أكثر يطلبونك بديون مختلفة من أخذ مال وقذف عرض وغير ذلك فيكف يكون حالك. المصاب حقاً من محقته الذنوب والشهوات حتى جعلته كالشن البالى هذا هو المنكوب المعزى ذهبت مآكله وشهواته ملأ بها المرحاض وأرضى بها زوجته ويا ليتها كانت من حلال. فأول المقامات التوبة ولا يقبل ما بعدها إلا بها مثال العبد إذا فعل المعصية كالقدر الجديد يوقد تحتها النار ساعة فتسود فإن بادرت إلى غسلها اغتسلت من ذلك السواد وإن تركتها وطبخت فيها مرة بعد مرة ثبت السواد فيها حتى تكسر ولا يفيد غسلها شيئاً، فالتوبة هى التى تغسل سواد القلب فتبرز الأعمال وعليها رائحة القبول فاطلب من الله تعالى التوبة دائما فإن ظفرت بها فقد طاب وقتك لأنها موهبة من الله يضعها حيث شاء من عباده وقد يظفر بها العبد المشقق الأكعاب دون سيده وقد تظفر بها المرأة دون زوجها والشاب دون الشيخ فإن ظفرت بها فقد أحبك الله لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وإنما يغتبط بالشيء من يعرف قدره، ولو بذرت الياقوت بين الدواب لكان الشعير أحب إليهم فانظر من أى الفريقين أنت إن تبت فأنت من المحبوبين وإن لم تتب فأنت من الظالمين قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١]، من تاب ظفر ومن لم يتب خسر ولا تقطع يأسك وتقول كم أتوب وأنقض فالمريض يرجو الحياة ما دامت فيه الروح، إذا تاب العبد فرحت به داره من الجنة وتفرح به السماء والأرض والرسول ﷺ، فالحق سبحانه لم يرض أن تكون محباً بل محبوباً وأن المحبوب من المحب، أف لعبد يعلم إحسان المحسن فيجترئ على معصيته ولكن ما عرف إحسانه من آثر عصيانه وما عرف قدره من لم يراقبه وما ربح من اشتغل بغيره فعلم أن النفس تدعوه إلى الهلكة فتبعها وعلم أن القلب يدعوه إلى الرشد فعصاه وعلم قدر المعصى فواجهه بالمعصية ولو علم اتصافه بعظمته لما قابله بوجود معصيته وعلم قرب مولاه وأنه يراه فسارع لما عنه نهاه وعلم أثر الذنب المرتب عليه دنيا وآخرة وغيباً وشهادة فما استحيا من ربه ولو علم أنه فى قبضته لما قابله بمخالفته. واعلم أن المعصية تتضمن نقض العهد

وتحليل عقد الود والإيثار على المولى والطاعة للهوى وخلع جلباب الحياء والمبادرة لله بما لا يرضى مع ما فى ذلك من الآثار الظاهرة من ظهور الكدورة فى الأعضاء والجمود فى العين والكسل فى الخدمة وترك الحفظ للحرمة وظهور كسب الشهوة وذهاب بهجة الطاعات وأما الآثار الباطنة فكالقساوة فى القلب ومعاندة النفس وضيق الصدر بالشهوات وفقدان حلاوة الطاعات وترادف الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار واستيلاء دولة الهوى إلى غير ذلك من ترادف الارتياب ونسيان المآب وطول الحساب ولو لم يكن فى المعصية إلا تبدل الاسم لكان ذلك كافيا فإنك إذا كنت طائعاً تسمى بالمحسن وإذا كنت عاصياً انتقل اسمك إلى المسيء المعرض هذا فى انتقال الاسم فيكف بانتقال الأثر من تبدل حلاوة الطاعة بحلاوة المعصية ولذاذة الخدمة بلذاذة الشهوة هذا فى تبدل الأثر فكيف يتبدل الوصف بعد أن كنت عنده موصوفاً عند الله بمحاسن الصفات فيعكس الأمر فتتصف بمساوئ الحالات هذا فى تبدل الوصف فكيف بتبدل المرتبة، فبعد أن كنت عند الله من الصالحين صرت عنده من المفسدين، وبعد أن كنت من المتقين صرت عنده من الخائنين فإن كانت الذنوب منفتحة فى وجهك فاستغث بالله والجأ إليه واحث التراب على رأسك وقل اللهم انقلنى من ذل المعصية إلى عز الطاعة وزر ضرائح الأولياء والصالحين وقل يا أرحم الراحمين، أتريد أن تجاهد نفسك وأنت تقوّيها بالشهوات حتى تغلبك وإلا فقد جهلت فالقلب شجرة تسقى بماء الطاعة وثمراتها مواجيدها فالعين ثمرتها الاعتبار والأذن ثمرتها الاستماع للقرآن واللسان ثمرته الذكر واليدان والرجلان ثمرتهما السعى فى الخيرات، فإذا جف القلب سقطت ثمراته فإن أجدب فأكثر من الأذكار ولا تكن كالعليل يقول لا أتداوى حتى أجد الشفاء فيقال له لا تجد الشفاء حتى تتداوى فالجهاد ليس معه حلاوة وما معه إلا رءوس الأسنة فجاهد نفسك هذا هو الجهاد الأكبر. واعلم أن الثكلى لا عيد لها بل العيد لمن قهر نفسه لا عيد إلا لمن جمع شمله. جاز بعضهم على دير راهب فقال له يا راهب متى عيد هؤلاء القوم؟ قال يوم يغفر لهم، ما مثالك مع نفسك إلا كمن وجد زوجته فى حاجة إلى خمار فأتاها بالملابس الحسنة والمآكل الطيبة، وإذا تركت الصلاة أصبحت تطعمها الهرائس والألوان، يبقى بعضهم أربعين سنة لا يحضر الجماعة لما يشم من نتن قلوب الغافلين فما أعرفك بمصالح الدنيا وما أجهلك بمصالح آخرتك. مثال الدنيا عندك كمن خرج إلى الضيعة واجتهد فخزن الأقوات فقد أتيت بما يعود نفعه عليك فى وقته وأنت خزنت حياة الشهوات وعقارب المعصية فهلكت. كفى بك جهلاً أن الناس يخزنون الأقوات لوقت حاجتهم إليها وأنت تخزن ما يضرك وهى المعاصى هل رأيت من يأتى بحيات فيربيها فى

داره فهل أنت تفعل ذلك، وأضر ما يخاف عليك محقرات الذنوب لأن الكبائر ربما استعظمتها فتبت منها واستحقرت الصغائر فلم تتب منها فمثالك كمن وجد أسداً فخلصه الله منه فوجد بعده خمسين ذئباً فغلبوه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور: ١١]، والكبيرة حقيرة في كرم الله فإذا أصررت على الصغيرة صارت كبيرة لأن السم يقتل مع صغره والصغيرة كالشرارة من النار والشرارة قد تحرق بلدة. من أنفق عافيته وصحته في معصية الله فمثاله كمن خلف له أبوه ألف دينار فاشترى بها حيات وعقارب وجعلها حوله تلدغه هذه مرة وتلسعه هذه أخرى أفما تقتله؟ وأنت تمحق الساعات في مخالفته فما مثالك إلا كالحدأة تطوف على الجيفة حيثما وجدتها انحطت عليها فكن كالنحلة صغير جرمها عظيمة همتها تجني طيباً وتضع طيباً، طالما تمرغت في مواطن المحن فتمرغ في محاب الله عزّ وجل فهذه الحقيقة تبين طريقك ولكن من أماتته الغفلة لم ترده النكبات لأن المرأة الناقصة العقل يموت ولدها وهي تضحك فكذلك أنت تنكب عن قيام الليل وعن صيام النهار وفي جميع جوارحك ولم تتألم وما ذلك إلا لأن الغفلة قد أهانت قلبك لأن الحي يؤلمه نقر الإبرة ولو قطع الميت بالسيوف لم يتألم فأنت حينئذٍ ميت القلب فاجلس مجلس الحكمة فيه نفحة من نفحات الجنة تجدها في طريقك وفي دارك وفي بيتك فلا يفتك المجلس ولو كنت على معصية فلا تقل ما الفائدة في حضور المجلس وأنا أعصي ولا أقدر على ترك المعصية؟ بل على الرامي أن يرمي فإن لم يأخذ اليوم يأخذ غداً. اعلم يا هذا إياك والمعصية فقد تكون سببا لتوقف الرزق فاطلب من الله التوبة فإن قبلت وإلا فاستغث بالله وقل: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولا تكن كمن أتى عليه أربعون سنة ولم يقرع باب الله قط وأكثر ما يخاف عليك سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى بسبب إطفاء جمرة الإيمان بسواد العصيان وهي الذنب على الذنب حتى يسودَ القلب من غير توبة. إياك أن تتهاون في أعمالك وتختار الطيبات لمرحاضك واحذر نفسك التي بين جنبيك فهي التي تحطب عليك ثم لا تفارق صاحبها إلى الممات والشيطان يفارق في رمضان لأنه تغل فيه الشياطين وربما تجد من يقتل فيه ويسرق فهذا من النفس فإذا مالت إلى المعصية فذكرها بعذاب الله والقطيعة عن الله بسببه.

والعمل المسموم يترك مع العلم بحلاوته لما فيه من وجود الأذى لقوله ﷺ: (الدنيا حلوة خضرة)[١] ويروى أيضاً: (جيفة قذرة)[٢] حلوة خضرة عند أهل الغفلة وجيفة قذرة عند العقلاء حلوة خضرة عند النفوس جيفة قذرة عند مراثى القلوب حلوة خضرة للتحذير وجيفة قذرة للتنفير، فلا تخدعنكم بحلاوتها فإن عاقبتها مُرة، إذا قيل لك من المؤمن؟ فقُل الذى اطلع على عيب نفسه ولم ينسب أحداً من العباد إلى عيب، وإذا قيل لك من المخذول؟ فقل الذى ينسب العباد إلى العيب ويبرئ نفسه منه، ومما تمادى عليه أهل الزمان مباسطتهم ومؤانستهم للعاصين لو أنهم عبسوا فى وجوههم لكان ذلك زاجرا لهم عن المعصية. وفتح لك باب الكمال لما رجعت إلى الرذائل أرأيت من فتح له باب القصور هل يرجع إلى المزابل، لو فتح لك باب الأنس بينك وبينه ما طلبت من تأنس به ولو اختارك لربوبيته ما قطعك عنه. لو كرمت عليه ما رماك لغيره، إذا عزل عنك محبة مخلوق فافرح فهذا من عنايته بك، ولا تكون معصية إلا والذل معها أفتعصيه ويعزك؟ كلا فقد ربط العز مع الطاعة والذل مع المعصية فصار فى طاعته نور وعز وكشف حجاب وضدها معصية ظلمة وذل وحجاب بينك وبينه ولكن ما منعك من الشهود إلى عدم وقوفك مع الحدود واشتغالك بهذا الوجود، إذا عصى ولدك فأدبه بالشرع ولا تقطعه بل قابله بالعبوسة ليكف عن المعصية، وأكثر ما يدخل على المؤمن الدخل إذا كان عاصياً فإما أن يفضحوه وإما أن يستهزئوا به فإذا فعلوا ذلك فقد أخطئوا الطريق إذا عصى المؤمن فقد وقع فى ورطة عظيمة وطريقه أن تفعل معه كما فعلت مع ولدك عند عصيانه تعرض عنه فى الظاهر وتكون له راجما فى الباطن وتطلب له الدعاء بالغيب، كفى بك جهلاً أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا وتشغل قلبك بما عندهم فتكون أجهل منهم لأنهم اشتغلوا بما أعطوا واشتغلت أنت بما لم تعط ترمد عينك فتعالجها وما سبب ذلك إلا أنك ذقت بها لذة الدنيا فتعالجها حتى لا يفوتك النظر إلى مستحسناتها وترمد بصيرتك أربعين سنة فلا تعالجها. واعلم أن عمراً ضيع أوّله جرى أن تحفظ آخره كامرأة كان لها عشرة أولاد مات منهم تسعة وبقى واحد أليست ترد وجدها على ذلك الواحد، وأنت قد ضيعت أكثر عمرك فاحفظ بقيته وهى صبابة يسيرة والله ما عمرك من أوّل يوم ولدت بل عمرك من أول يوم عرفت الله تعالى. شتان بين أهل

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٩٨)، والترمذى (٤/ ٤٨٣)، وأحمد فى المسند (٥/ ٣٤٢)، (٦/ ٤١٠).

(٢) أورد العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٣١) بنحوه، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان (٦/ ٢٩٤).

السعادة وأهل الشقاوة، فأهل السعادة إذا رأوا إنسانا على معصيته أنكروا عليه فى الظاهر ودعوا له فى الباطن، وأهل الشقاوة ينكرون عليه تشفيا فيه وربما ثلموا عليه عرضه، فالمؤمن من كان ناصحا لأخيه فى الخلوة ساتراً له فى الخلوة، وأهل الشقاوة بالعكس إذا رأوا إنسانا على معصية أغلقوا عليه الباب وفضحوه فيها فهؤلاء لا تنور بصائرهم وهم عند الله مبعدون. وإذا أردت أن تختبر عقل الرجل فانظر إليه إذا ذكرت له شخصا فإن وجدته يطوف على محل سوء حتى يقول لك خلنا منه ذاك فعل كذا وكذا فاعلم أن باطنه خراب وليس له معرفة وإذا رأيته يذكره بخير أو يذكر له ما يوصف بالذم ويحمله على محمل حسن ويقول لعله منها أو له عذر أو ما أشبه ذلك فاعلم أن باطنه معمور فإن المؤمن يعمل على سلامة عرض أخيه المسلم، من قارب فراغ عمره ويريد أن يستدرك ما فاته فليذكر بالأذكار الجامعة فإنه إذا فعل ذلك صار العمر القصير طويلا كقوله: سبحان الله العظيم وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، وكذلك من فاته كثرة الصيام والقيام أن يشغل نفسه بالصلاة على رسول الله ﷺ فإنك لو فعلت فى جميع عمرك كل طاعة ثم صلى الله عليك صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ما عملته فى عمرك كله من جميع الطاعات لأنك تصلى على قدر وسعك وهو يصلى على حسب ربوبيته هذا إذا كانت صلاة واحدة فكيف إذا صلى عليك عشراً بكل صلاة كما جاء فى الحديث الصحيح، فما أحسن العيش إذا أطعت الله فيه بذكر الله تعالى أو الصلاة على رسول الله ﷺ يروى أنه (ما من صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى) لأن السارق لا يسرق بيتاً وأهله أيقاظ بل على غفلة أو نوم، من علم قرب رحيله أسرع فى تحصيل الزاد، ومن علم أن إحسان غيره لا ينفعه حد فى الإحسان، ومن أخرج ولم يحسب خسر ولم يدر، ومن وكل وكيلاً واطلع على خيانته عزله كذلك نفسك قد اطلعت على خيانتها فاعزلها وضيق عليها المسالك إذا رأيت فيك الإعراض والشهوة والغفلة فهذا وصفك، وإذا رأيت فيك الإنابة والخشية والزهد فهذا من صنائع الله.

مثال ذلك إذا رأيت ببلدك الحلفاء والشوك والعوسج فهذا نبات أرض بلدك وإذا رأيت بها العود الرطب والمسك والعنبر فاعلم أنه مجلوب من صنائع الله ليس من بنات أرضك فالمسك من غزلان عراقها والعنبر من بحر هندها، مثال الإيمان معك إذا عصيت الله تعالى كالشمس المكسوفة أو كالسراج إذا غطيته بصحفة هو موجود ولكن يمنع نوره الغطاء ثم إنك تحضر المجلس فى الجامع ليتوفر عقلك وإن كان عمرك قليلا يصير كثير الحصول الإيمان والخشوع والخضوع والخشية والتدبر والتذكر ونحوها فلو عرفت الإيمان

ما قاربت العصيان، فلا غريم أمطل من النفس، ولا عدوّ أعظم من الشيطان، ولا معارض أقوى من الهوى، ولا يدفع المدد الهابط مثل الكبر لأن الغيث لا يقر إلا على الأرض المنخفضة لا فوق رءوس الجبال فكذلك قلوب المتكبرين تنتقل عنها الرحمة وتنزل إلى قلوب المتواضعين، والمراد بالمتكبرين من يرد الحق لا من يكون ثوبه حسناً ولكن الكبر بطر الحق يعنى دفعه واحتقار الناس ولا تعتقد أن الكبر لا يكون إلا فى وزير أو صاحب دنيا بل قد يكون فيمن لا يملك عشاء ليلة وهو يفسد ولا يصلح لأنه تكبر على خلق الله تعالى ولا تعتقد أن المكتوب من كان فى الأسر أو فى السجن بل المنكوب من عصى الله وأدخل فى هذه المملكة الطاهرة نجاسة المعصية.

كثير من أنفق الدنانير والدراهم ولكن من أنفق الروح قليل: الأحمق من مات ولده وجعل يبكى عليه على ما فاته من الله عز وجل فكأنه يقول بلسان حاله أنا أبكى على ما كان يشغلنى عن ربى بل كان ينبغى له الفرح بذلك ويقبل على مولاه لأنه أخذ منه ما كان يشغله عنه، وقبيح بك أن تشيب وأنت طفل العقل صغيره ولا تفهم مراد الله منك فإن كنت عاقلا فابك على نفسك قبل أن يبكى عليك فإن الولد والزوجة والخادم والصديق لا يبكون عليك إذا مت بل يكون على ما فاتهم منك فسابقهم أنت بالبكاء وقل يحق لى أن أبكى على فوات حظى من ربى قبل أن يبكوا على وكفى بك جهلا أن يعاملك مولاك بالوفاء وأنت تعامله بالجفاء. ليس الرجل من صاح بين الناس فى المجلس إنما الرجل من صاح على نفسه وردها إلى الله تعالى. من عال همّ الدنيا وترك هم الآخرة كان كمن جاءه أسد يفترسه ثم قرصه برغوث فاشتغل به عن الأسد فإن من غفل عن الله تعالى اشتغل بالحقير ومن لم يغفل عنه لم يشغل إلا به فأحسن أحوالك أن تفوتك الدنيا لتحصيل الآخرة، وطالما فاتتك الآخرة لتحصيل الدنيا. ما أقبح الخوف بالجندى. ما أقبح اللحن بالنحوى، وما أقبح طلب الدنيا لمن يظهر الزهد فيها. ليس الرجل من يريك لفظه إنما الرجل من يريك لحظه (عن الشيخ) أبى العباس المرسى رضى الله عنه أنه قال إذا كانت السلحفاة تربى أفراخها بالنظر كذلك الشيخ يربى مريده بالنظر لأن السلحفاة تبيض فى البر وتتوجه إلى جانب النهر وتنظر إلى بيضها فيربيهم الله لها بنظرها إليهم. إياك أن تخرج من هذه الدار وما ذقت حلاوة حبه فى المآكل والمشارب لأنه يشاركك فيها الكافر والدابة بل شارك الملائكة فى حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى لأن الأرواح لا تحتمل رشاش النفوس فإذا انغمست فى جيفة الدنيا لا تصلح للمحاضرة لأن حضرة الله تعالى لا يدخلها المتلطخون بنجاسة المعصية فطهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب وتب إلى الله وارجع إليه بالإنابة والذكر، ومن أدام قرع الباب يفتح له ولولا الملاطفة ما

قلنا لك ذلك لأنه كما قالت رابعة العدوية رضى الله عنها متى أغلق هذا الباب حتى يفتح ولكن هذا باب يوصلك إلى قربه، وإياك وذهول القلب عن وحدانية الله تعالى فأول درجات الذاكرين استحضار وحدانية الله تعالى وما ذكره الذاكرون وفتح عليهم إلا باستحضارهم ذلك وما طردوا إلا بذكرهم مع غلبة الذهول عليهم وتستعين على ذلك بقمع الشهوتين البطن والفرج ولا يضادك فى الله إلا نفسك وما أكثر تودد للخلق وما أقل تودد للحق. لو فتح لك باب التودد مع الله لرأيت العجائب، ركعتان فى جوف الليل تودد، عيادتك للمرضى تودد، صلاتك على الجنائز تودد، الصدقة على المساكين تودد، إعانتك لأخيك المسلم تودد، إماطتك الأذى عن الطريق تودد، ولكن السيف المطروح يحتاج إلى مساعد ولا عبادة أنفع لك من الذكر لأنه يمكن الشيخ الكبير والمريض الذى لا يستطيع القيام والركوع والسجود.

واعلم أن العلماء والحكماء يعرّفونك كيف تدخل إلى الله تعالى هل رأيت مملوكاً أول ما يشترى يصلح للخدمة بل يعطى لمن يربيه ويعلمه الأدب فإن صلح وعرف الأدب قدمه للملك كذلك الأولياء رضى الله عنهم يصحبهم المريدون حتى يزجوا بهم إلى الحضرة كالعوّام إذا أراد أن يعلم الصبى العوم يحاذيه إلى أن يصلح العوم وحده فإذا صلح زجه فى اللجة وتركه وإياك أن تعتقد أنه لا يتوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين فإنهم وسيلة جعلها الله إليه لأن كل كرامة للولى هى شهادة بصدق النبى لأنها جرت على أيدى الأولياء مثل خرق العادات والمشى على الماء والطيران فى الهواء وأخبار المغيبات ونبع الماء ونحو ذلك لأنهم لم يعطوا ذلك إلا لأجلهم، عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه قال كل نفسك وزنها بالصلاة فإن انتهت عن الحظوظ فاعلم أنك سعدت وإلا فابك على نفسك إذا جررت رجلك إلى الصلاة جرا فهل رأيت حبيبا لا يريد لقاء حبيبه قال الله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فمن أراد أن يعرف حقيقته عند الله وينظر حاله مع الله فلينظر إلى صلاته إما بالسكون والخشوع وإما بالغفلة والعجلة فإن لم تكن بالوصفين السابقين فاحث التراب على رأسك فإن من جالس صاحب المسك عبق عليه من ريحه فإن الصلاة مجالسة الله تعالى فإذا جالسته ولم يحصل لك منه شيء دل ذلك على مرض فيك وهو إما كبر أو عجب أو عدم أدب قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ

يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فلا ينبغى لمن صلى أن يسرع الخروج بل يذكر الله تعالى ويستغفره من تقصيره فيها فرب صلاة لا تصلح للقبول فإن استغفرت الله بعدها قبلت وكان النبى ﷺ إذا صلى استغفر الله ثلاث مرات، كم فيك من الكوامن فإذا أوردت عليها الواردات أظهرتها وأعظمها ذنباً الشك فى الله والشك فى الرزق شك فى الرازق. الدنيا أحقر من أن يعال همها صغرت الهمم فعالت صغيراً فلو كنت كبيراً لعلت الكبير من عال الهم الصغير وترك الهم الكبير استسفلنا عقله قم أنت بما يلزمك من وظائف العبودية وهو يقوم لك بما التزمه أيرزق الجعل والوزغ وبنات وردان وينسى أن يرزقك قال الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢] كل من كان مراعياً لحق الله تعالى لا يحدث الله حدثا فى المملكة إلا أعلمه.

نظر بعضهم إلى جماعة فقال هل فيكم من إذا أحدث الله سبحانه وتعالى فى المملكة حدثاً أعلمه؟ قالوا لا فقال لهم ابكوا على أنفسكم، كان المتقدمون من السلف رضى الله عنهم يسألون الشخص عن حاله ليستثيروا منه الشكر والناس اليوم ينبغى أن لا يسألوا فإنك إن سألت تستثير الشكوى، عن بعض النباشين أنه تاب إلى الله تعالى فقال يوما لشيخه يا سيدى نبشت ألف قبر فوجدت وجوههم محولة عن القبلة فقال الشيخ: يا ولدى ذاك من شكهم فى رزقهم يا عبد الله إذا طلبت من الله فاطلب منه أن يصلحك من كل الوجوه وأن يصلحك بالرضا عنه فى تدبيره لك ثم إنك عند شرود طلب منك أن تعبر عليه ففررت منه فإن القرار يكون بالأفعال والأحوال والهمم فإذا كنت فى صلاتك تسهو وفى صومك تلغو وفى لطف الله تشكو فأنت شارد. عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه قال بقيت مرة فى البادية ثلاثة أيام لم يصح لى شيء فجاز علىّ بعض النصارى فرأونى متكئا فقالوا هذا قسيس من المسلمين فوضعوا عند رأسى شيئا من الطعام وانصرفوا فقلت يا للعجب كيف رزقت على أيدى الأعداء ولم أرزق على أيدى الأحباء؟ فقيل ليس الرجل من يرزق على أيدى الأحباء إنما الرجل من يرزق على يد أعدائه يا هذا اجعل نفسك كدابتك كما عدلت عن الطريق ضربتها فرجعت إلى الطريق ولو فعلت مع نفسك مثل ما تفعل بجبتك كلما توسخت غسلتها

وكلما تقطع منها شيء رقعته وجددته كانت لك السعادة فرب رجل ابيضت لحيته وما جلس مع الله جلسة يحاسب نفسه فيها. عن الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه أنه قال: كنت في الهداية أحاسب نفسي عند المساء فأقول تكلمت اليوم بكذا وكذا فأجد ثلاث كلمات أو أربعا وكان عنده يوما شيخ عمره نحو تسعين سنة فقال له يا سيدى أشكو إليك كثرة الذنوب فقال له الشيخ هذا شيء لا نعرفه وما أعرف أني عملت ذنبا قط. كما أن للدنيا أبناء من استند إليهم كفوه فكذلك إن للآخرة أبناء من استند إليهم أغنوه ولا تقل طلبنا فلم نجد فلو طلبت بصدق لوجدت وسبب عدم وجدانك عدم استعدادك فإن العروس لا تجلى على فاجر فلو طلبت رؤية العروس لتركت الفجور ولو تركت الفجور لرأيت الأولياء والأولياء كثيرون لا ينقص عددهم ولا مددهم ولو نقص واحد منهم لنقص نور النبوة إذا أحببت حبيبا لن تصل إليه حتى تكون أهلا للوصول إليه وذلك حتى تتطهر مما أنت فيه من الرذائل.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: أولياء الله عرائس والعرائس لا يراها المجرمون. إذا ثقلت عليك الطاعة والعبادة ولم تجد لها حلاوة في قلبك وتخف عليك المعصية تجد لها حلاوة فاعلم أنك لم تصدق في توبتك فإنه لو صح الأصل لصح الفرع. ليتك لو أطعت مولاك كما يطيعك عبدك فإنك تحبه ناهضا في خدمتك دائما وأنت تحب الطاعة وتطلب أن تفرغ منها مسرعا كأنك تنقر بالمناقير فيا ليت بصرا نظرت به محاسن الغير عوضت عنه العمى. كم حصل لك الهوان بالوقوف على أبواب المخلوقين وكم أهانوك وأنت لا ترجع إلى مولاك. عن الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه أنه قال رأيت في المنام حورية وهي تقول أنا لك وأنت لى قال فبقيت نحو شهرين أو ثلاثة لا أستطيع لمخلوق كلاما إلا تقيأت لطيب كلامها. كفاك من الإدبار أن تفتح عينيك في هذه الدار قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١٣١]، قدر لك الصحة والمرض والغنى والفقر والفرح والحزن حتى تعرفه بأوصافه: من صحبك يوما أو يومين ولم ير منك نفعا تركك وصحب غيرك وأنت تصحب نفسك أربعين سنة ولم تر منها نفعا فقل لها ارجعي يا نفس إلى رضا ربك طالما وافقتك في الشهوات فتبدلى بعد البطالة بالاشتغال بالله وبعد الكلام بالصمت وبعد الوقوف بالحارات الجلوس بالخلوة وبعد الأنس بالمخلوقين الأنس بالخالق وبعد قرناء السوء معاشرة أهل الخير والصلاح اجعل أحوالك على ضد ما كنت عليه اجعل بدل السهر، السهر في طاعة الله، وبعد الإقبال على أهل الدنيا الإعراض عنهم والإقبال على الله، وبعد الإصغاء لكلامهم الإصغاء والاستماع

لكلام الله عز وجل وذكره وبعد الأكل بالشره والشهوة الأكل القليل الذى يعينك على الطاعة قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، إنما عصى الله من لم يعرف عقابه وإنما ترك طاعة الله من لم يعرف ثوابه فلو اطلعوا على عذاب النار لما غفلوا ولو اطلعوا على ما أعد الله لأهل الجنة لما تركوها طرفة عين . إذا صحبت أبناء الدنيا جذبوك إليها وإذا صحبت أبناء الآخرة جذبوك إلى الله قال رسول الله ﷺ (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم لمن يخالل)[1] كما تختار لنفسك المآكل الطيبة التى لا ضرر فيها والزوجة الحسنة لتتزوجها فكذلك لا يوادد إلا من يعرفك الطريق إلى الله سبحانه وتعالى. واعلم أن لك ثلاثة أخلاء: أحدهما المال تفقده عند الموت. والثانى العيال يتركونك عند القبر. والثالث عملك لا يفارقك أبداً فاصحب من يدخل معك قبرك وتأنس به فالعاقل من عقل عن الله أوامره ونواهيه مثالك كالجعل يعيش فى الروث والعذرة وإذا قرب إليه الورد مات من رائحته فمن الناس من جعل الهمة فراش العقل فإن الفراش لا يزال يرمى نفسه فى النار حتى تحرقه فكذلك أنت ترمى نفسك فى نار المعصية عمدا فلو أردت السير إلى الله تعالى شددت المحزم فأين الهمة إنما تأكل لتعيش وتعيش لتأكل فإن فعلت ذلك فمثالك على المداود كثير ومثلك فى الدواب كثير فإن فعلت ذلك فإن أسبق الخيل ما ضمر تقول هذه الليلة أقلل الأكل فإذا حضر الطعام كأنه حبيب مفارق ومن لم يرد الله صلاحه تعبت فيه الأقاويل قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤)، وأبو داود (٤/ ٢٥٩)، والترمذى (٤/ ٥٨٩)، والطبالسى (١/ ٣٣٥)، والحاكم فى المستدرك (٤/ ١٨٩،١٨٨)، وعبد بن حميد فى مسنده (١/ ٤١٨)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٥٥).

ما أهربك من الهوان وما أوقعك فيه تهين نفسك وتلقيها فى مواطن الردى قال بعضهم كن مع الله كالطفل مع أمه كلما دفعته أمه ترامى عليها لا يعرف غيرها، يا عبد الله تنتخب لنفسك الطيبات بل تنتخب لداينك العلف وتعامل الله بالمجازفة وربما قلبت عشرين بطيخة حتى تصلح لك واحدة لدهليز مرحاض وتقعد عند الأكل متربعا وربما طولت فى الأكل وإذا جئت إلى الصلاة نقرتها نقر الديك والوساوس والخواطر الرديئة تأتيك فى صلاتك مثال من هذه حالته كمن نصب نفسه للهدف وقعد فى الأرماح والسهام تقصده من كل جانب أفما هذا أحمق، مثالك إذا سمعت الحكمة ولم تعمل بها كمثل الذى يلبس الدرع ولا يقاتل ألا فقد حصل النداء على سلعتنا فهل من مشتر. قيمتك قيمة ما أنت مشغول به فإن اشتغلت فى الدنيا فلا قيمة لك لأن الدنيا كالجيفة لا قيمة لها أفضل ما يطلب العبد من الله أن يكون مستقيما معه قال الله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦] فاطلب منه الهداية والاستقامة وهو أن تكون مع الله فى كل حال بالذى يرضاه لك وهو ما جاء به النبى ﷺ عن الله سبحانه وتعالى من بذل لله صرف الود سقاه الله صرف الكرم، مثال السالك كمن يحفر على الماء قليلاً قليلاً حتى يجد الثقب فينبع له الماء بعد الطلب، ومثال المجذوب كمن أراد الماء فأمطرت له سحابة فأخذ منها ما يحتاج إليه من غير تعب. إذا أعطيت نفسك كل ما تشتهى وتطلب من الشهوات كنت كمن فى بيته حية يسمنها كل يوم حتى تقتله ولو جعل فيك الروح من غير نفس لأطعت وما عصيت ولو جعل فيك النفس من غير روح لعصيت وما أطعت فلذلك جعل فيك القلب والروح والنفس والهوى كالنحلة جعل فيها اللسعة والعسل فلذلك تتلون فالعسل يبره واللسع يقهره فأراد الله أن يكسر دعوة النفس بوجود القلب ودعوى القلب بوجود النفس يا عبد الله طلب منك أن تكون له عبداً فأبيت أن تكون إلا ضداً إقبالك على الله إفرادك له بالعبادة فكيف يرضى لك أن تعبد غيره فلو أتيتنا تطلب العطاء منا أنصفتنا فكيف ترضى إذا أقبلت على من سوانا، وقفت الدنيا فى طريق الآخرة فصرفت الوصول إليها ووقفت الآخرة فى طريق الحق فمنعت الوصول إليه.

إن من لطف الله بك أن يكشف لك عن عيوب نفسك ويسترها عن الناس إذا أعطيت الدنيا ومنعت الشكر فيها فهى محنة فى حقك قال رسول الله ﷺ (قليل الدنيا يلهى عن طريق الآخرة)[1] كان لبعضهم زوجة فقالت له يوماً لا أقدر على أن تغيب

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وروى البيهقى فى الزهد الكبير نحوه (٢/ ٨٨).

عنى ولا أن تشتغل بغيرى فنودى إذا كانت هذه لا خالقة ولا موجدة وهى تحب أن تجمع قلبك فكيف لا أحب أن تجمع قلبك علىَّ. كنت مرة عند الشيخ أبى العباس المرسى رضى الله عنه فقلت فى نفسى أشياء فقال الشيخ إن كانت النفس لك فاصنع بها ما شئت ولن تستطيع ذلك ثم قال النفس كالمرأة كلما أكثرت خصامها أكثرت خصامك فسلمها إلى ربها يفعل بها ما يشاء فربما تعبت فى تربيتها فلا تنقاد لك فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله بدليل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١].

إذا أحبك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغل بهم عنه وقطع علائقك من المخلوقين حتى ترجع إليه وكم تطلب نفسك إلى الطاعة وهى تتقاعد إنما تحتاج إلى معالجة نفسك فى الابتداء فإذا أذاقك المنة جاءت اختياراً فالحلاوة التى كانت تجدها فى المعصية ترجع تجدها فى الطاعة.

مثال الإيمان فى القلب كالشجرة الخضراء فإذا كثرت عليها المعاصى يبست وفرغ إمدادها فمن أحب القيام بالواجبات فليترك المحرمات ومن ترك المكروهات أعين على تحصيل الخيرات، ومن ترك المباحات وسع عليه توسعة لا يسعها عقله وأباح له حضرته، ومن ترك استماع ما حرم عليه كلامه ولكن ما أهون الغرابة التى فيها هوى نفسك عليك وما أثقل ما ليس فيه هوى.

مثاله أن تحج تنفلاً فإن قيل لك تصدق بذلك شق عليك لأن أمر الحج يرى فللنفس فيه حظ والصدقة تطوى وتنسى وكذلك درسك العلم لغير الله فإنك تدرس الليل كله ونفسك طيبة بذلك فإذا قيل لك صل بالليل ركعتين شق عليك لأن الركعتين بينك وبين الله ليس فيهما للنفس حظ والقراءة والدرس للنفس فيها حظ مشاركة للناس فلأجل ذلك خفف عليها. قال بعضهم: تاقت نفسى إلى الزواج فرأيت المحراب قد انشق وخرج منه نعل من ذهب مكلل باللؤلؤ فقيل لى هذا نعلها فكيف وجهها؟ فانقطعت شهوة النكاح من قلبى. من هيئت له المنازل لم يرض له بالقعود على المزابل فاعمل الأعمال الصالحات بينك وبين الله سراً ولا تطلع عليه أهلك واجعله مدخراً عند الله تجده يوم القيامة فإن النفس تمنع بذكر العمل.

صام بعضهم أربعين سنة ولم يعلم به أهله، لا تنفق أنفاسك فى غير طاعة الله ولا

تنظر إلى صغير النفس بل انظر إلى مقداره وإلى ما يعطى الله العبد فالأنفاس جواهر وهل رأيت أحداً يرمى جوهرة على مزبلة؟ أفتصلح ظاهرك وتفسد باطنك؟ فمثالك كالمجزوم لبس ثياباً جديدة ويخرج منه فى الباطن القبيح والصديد فأنت تصلح ما ينظر إليه الناس ولا تصلح قلبك الذى هو لربك. الحكمة كالقيد إن قيدت بها نفسك امتنعت وإن رميتها تسيبت ويخاف عليك مثال ذلك كالمجنون فى بيتك يخربه ويقع الثياب فإذا قيدته استرحت وإذا طرحت القيد وخرجت فالضرر باق، يا أيها الشيخ قد أفنيت عمرك فاستدرك ما فاتك قد لبست البياض وهو الشيب والبياض لا يحمل الدنس.

مثال القلب كالمرآة ومثال النفس كالنفس كلما تنفست على المرآة تسود.

قلب الفاجر كمرآة العجوز التى ضعفت همتها أن تجلوها وتنظر فيها وقلب العارف كمرآة العروس كل يوم تنظر فيها فلا تزال مصقولة.

همة الزاهدين فى كثرة الأعمال وهمة العارفين فى تصحيح الأحوال.

أربعة تعينك على جلاء قلبك: كثرة الذكر، ولزوم الصمت، والخلوة، وقلة المطعم والمشرب.

أهل الغفلة إذا أصبحوا يتفقدون أموالهم وأهل الزهد والعبادة يتفقدون أحوالهم وأهل المعرفة يتفقدون قلوبهم مع الله عز وجل. ما من نفس بيدي الله تعالى فيك من طاعة أو مرض أو فاقة إلا وهو يريد أن يختبرك بذلك، ومن طلب الدنيا بطريق الآخرة كان كمن أخذ ملعقة ياقوت يغرف بها العذرة أفما يعد هذا أحمق. لا تعتقد أن الناس فاتهم العلم بل فاتهم التوفيق أكثر من العلم. أول ما ينبغى لك أن تبكى على عقلك فكما يقع القحط فى الكلأ يقع فى عقول الرجال وبالعقل عاش الناس مع الناس ومع الله تعالى، مع الناس بحسن الخلق، ومع الله باتباع مرضاته، إن من من عليك بثلاثة فقد من عليك بالنعمة الكبرى:

الأولى الوقوف على حدوده. والثانية الوفاء بعهوده. والثالثة الغرق فى شهوده، وما سبب استغرابك لأحوال العارفين إلا استغراقك فى القطيعة، ولو شاركتهم فى الأسفار لشاركتهم فى الأخبار، ولو شاركتهم فى العنا لشاركتهم فى الهنا: ما شأن نفسك وقت الرضا إلا كالبعير المعقول فإذا سيبته انطلق قال رسول الله ﷺ (لقلب ابن آدم أشد تقلباً من القدر على النار إذا غلت) فكم من كان فى جمع مع الله أتته الفرقة فى نفس واحد، وكم من بات فى طاعة الله ما طلعت عليه الشمس حتى دخل فى القطيعة فالقلب بمثابة العين والعين لا ترى بها كلها بل بمقدار العدسة منها كذلك القلب لا يراد منه اللحمانية بل اللطيفة التى أودعها الله فيه وهى المدركة وجعل الله القلب معلقا فى الجانب الأيسر

كالدلو فإن هب عليه هوى الشهوة حركه وإن هب عليه خاطر للتقوى حركه، فتارة يغلب عليه خاطر الهوى وتارة يغلب عليه خاطر التقى حتى يعرفك مرة منه ومرة قهره، فمرة يغلب عليه خاطر التقى ليمدحك ومرة يغلب عليه خاطر الهوى ليذمك، فالقلب بمثابة السقف فإذا أوقد فى البيت نار صعد الدخان إلى السقف فسوده، فكذلك دخان الشهوة إذا نبت فى البدن صعد دخانه إلى القلب فسوده. إذا ظلمك القوى فارجع إلى القوى ولا تخف منه فيسلط عليك مثال من يشهد الضرر من المخلوقين كمن ضرب الكلب بحجر فأقبل الكلب على الحجر يعضه ولا يعرف أن الحجر ليس بفاعل فيكون هو والكلب سواء.

مثال من يشهد الإحسان من المخلوقين كالدابة إذا رأت سايسها بصبصت ويدنو إليها مالكها فلا تلقى إليه بالاً، فإن كنت عاقلاً فاشهد الأشياء من الله عز وجل ولا تشهدها من غيره ليس التائه من تاه عن سبيل الهدى. تطلب العز من الناس ولا تطلبه من الله فمن طلبه من الناس فقد أخطأ الطريق ومن أخطأ الطريق لم يزده سيره إلا بعداً فهذا التائه حقاً: إذا قلت لا إله إلا الله طالبك الله بها وبحقها وهو أن لا تنسب الأشياء إلا إليه. مثال القلب إذا سلمته إلى النفس كمن تعلق بغريق فغرق كل واحد منهما، ومثال النفس إذا سلمتها للقلب كمن أسلم نفسه إلى عوّام قويّ فسلمها له فلا تكن ممن سلم قلبه إلى نفسه فهل رأيت بصيرا قلد نفسه إلى أعمى يقوده. إن أمكنك أن تصبح وتمسى وما ظلمت أحداً من العباد فأنت سعيد فإن لم تظلم نفسك فيما بينك وبين الله فقد تكملت لك السعادة فاغلق عينيك وسد أذنيك وإياك وإياك وظلم العباد. ما مثالك فى صغر عقلك وكونك لا تعلم ما عليك من الملابس إلا كالمولود تكسوه أمه أحسن الملابس وأفخرها وهو لا يشعر وربما دنسها ونجسها فتسرع إليه أمه وتكسوه أخرى لئلا يراه الناس كذلك وتغسل ما تنجس وهو لا يعلم ما فعل به لصغر عقله. عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه قال: قيل لى يا على طهر ثيابك من الدنس تحفظ بمدد الله فى كل نفس فقلت وما ثيابي؟ فقيل لى إن الله كساك حلة المعرفة ثم حلة التوحيد ثم حلة المحبة ثم حلة الإيمان ثم حلة الإسلام، فمن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئا، ومن آمن بالله أمن من كل شيء، ومن أسلم لله قلما يعصيه وإن عصاه اعتذر إليه وإن اعتذر إليه قبل عذره، قال فهمت من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ ﴾ [المدثر: ٤]، يا من عاش وما عاش تخرج من الدنيا وما ذقت ألذ شيء فيها وهى مناجاة الحق سبحانه ومخاطبته لك فأنت ملقى جيفة بالليل فإن دفعت عنه فاستغث بالله وقل يا ملائكة الله ويا رسول ربى فانتنى

الغنيمة التى نالوها من لذة المناجاة ووداد المصافاة،إذا كان العبد معجبا بطاعته متكبرا على خلقه ممتلئا عظمة يطلب من الخلق أن يوفوا حقوقه ولا يوفى حقوقهم فهذا يخشى عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله، وإذا كان فعل معصية تراه باكياً حزيناً منكسراً ذليلاً يتطارح على أرجل الصالحين معترفاً بالتقصير فهذا يرجى له حسن الخاتمة إذا طلبت قارئاً وجدت مالا يحصى، وإذا طلبت طبيباً وجدت كثيراً وإذا طلبت فقيهاً وجدت مثل ذلك، وإن طلبت من يدلك على الله ويعرفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً فإن ظفرت به فأمسكه بكلتا يديك. إن أردت أن تنصر فكن ذليلاً قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، إن أردت أن تعطى فكن فقيراً ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠]، تكون فى وسط النهر وأنت عطشان تكون معه فى الحضرة وأنت تطلب الاتصال كأن العباد لم يتواصلوا للآخرة إلا بكثرة المأكل والمشرب أو قيل لهم هذه توصلكم إلى الآخرة ولكن ما أرخص نفسك عليك، لولا هوانها عليك ما عرضتها لعذاب الله تعالى وما أعلاها فى طلب الدنيا وجمعها؛ والعجب كل العجب فيمن يسأل المنجم عن حاله ولا يسأل كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. إذا ضعفت عن العبادة فرقع عبادتك بالبكاء والتضرع. إذا قيل لك من يبكى عليه فقل عبد عتق فأنفق عاقبته فى معصية الله.

إذا نمت على تخليط رأيت التخليط فى منامك بل ينبغى لك أن تنام على طهارة وتوبة فيفاتح قلبك بنوره ولكن من كان فى نهاره لاغيا كان فى ليله عن الله ساهيا، إذا رأيت وليا لله تعالى فلا يمنعك إجلاله من أن تقعد بين يديه متأدباً وتتبرك به واعلم أن السماء والأرض لتتأدب مع الولى كما يتأدب معه بنو آدم، فمن فرح بالدنيا إذا جاءته فلقد ثبت حمقه وأحمق منه من إذا فاتته حزن عليها، فمثالك كمن جاءته حية لتلدغه ثم مضت وسلمه الله منها فحزن عليها أن لم تضره، من علامات الغفلة وصغر العقل أن تعول هما هل يقع أولا وتترك أن تعول هما لابد من وقوعه وتصبح تقول كيف يكون السفر غداً وكيف يكون الحال فى هذه السنة وألطاف الله تأتى من حيث لا تعلم والشك فى الرزق شك فى الرازق وما سرق السارق وما غضب الغاضب إلا رزقه فما دمت حيا لا ينقص من رزقك شيئاً، كفى بك جهلاً أن تعول الهم الصغير وتترك الهم الكبير على هم هل